

جبارة الغابة

كامل كيلاني



جَبَّارَةُ الْغَابَةِ

تأليف
كامل كيلاني



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: حنان بغدادي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٣٠٤ ١

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

جبارة الغابة

(١) حَدِيثُ النَّسِيمِ

مَرَّ نَسِيمُ الصَّبَاحِ عَلَى الْأَزْهَارِ الْبَهِيْجَةِ النَّاصِرَةِ الَّتِي تَزْدَانُ بِهَا الْأَجْمَةُ، وَهَمَسَ النَّسِيمُ فِي أَثْنَاءِ خَطَرَتِهِ (فِي خِلَالِ مُرُورِهِ):

«يَا لَهُ مِنْ نَبَاٍ هَائِلٍ! يَا لَهُ مِنْ نَبَاٍ هَائِلٍ!»

فَانْزَعَجَتِ الزَّهْرَاتُ، وَقَالَتْ مَدْهُوْشَةً: «أَيُّ نَبَاٍ تَحْمِلُ، يَا نَسِيمَ الصَّبَاحِ؟»

فَهَمَسَ النَّسِيمُ الْبَلِيلُ (الْمَحْمَلُ بِالنَّدَى، الْمُبَلَّلُ بِهِ):

«لَقَدْ هَلَكْتَ جَبَّارَةُ الْغَابَةِ! لَقَدْ هَلَكْتَ جَبَّارَةُ الْغَابَةِ!»

فَقَالَتْ زَهْرَةُ الْأَقْحَوَانِ، وَهِيَ أَعْلَى أَزْهَارِ الْغَيْضَةِ ارْتِفَاعًا (وَالْغَيْضَةُ: مُجْتَمَعُ الشَّجَرِ):

«أَتَعْنِي: السَّنْدِيَانَةُ الْعَجُوزُ؟ وَكَيْفَ هَلَكْتَ هَذِهِ الْجَبَّارَةُ، وَهِيَ مِثَالُ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ؟

هَذَا لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّ الْعَمَالِقَةَ الْأَشْدَاءَ لَا يَمُوتُونَ. وَمَا أَحْسَبُكَ إِلَّا وَاهِمًا مُخْطِئًا فِي حُسْبَانِكَ،

يَا سَيِّدِي النَّسِيمِ.

وَكَيْفَ تُرِيدُنَا عَلَى أَنْ نَصَدِّقَ هَذَا النَّبَأَ، وَقَدْ كَانَتْ — إِلَى أَمْسٍ — شَامِخَةً ذَاهِبَةً

فِي الْفَضَاءِ، كَأَنَّهَا الْعَمَلَقُ الْعَظِيمُ، أَوْ الْمَارِدُ الْجَبَّارُ الْهَائِلُ، كَمَا حَدَّثْتَنِي عَنْهَا صَدِيقَتِي

الْقَنْبَرَةُ، الَّتِي كَانَتْ تُعَرِّدُ عَلَى أَفْنَانِهَا (تَعْنِي عَلَى أَغْصَانِهَا) فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ؟»

فَجَمَعَ النَّسِيمُ (تَكَلَّمَ خَافَتِ الصَّوْتِ)، وَهُوَ يَبْتَعدُ:

«لَقَدْ مَاتَتْ جَبَّارَةُ الْغَابَةِ، وَلَقِيتُ حَتَفَهَا (مَوْتَهَا) لَيْلَةَ أَمْسٍ. نَعَمْ هَلَكْتَ الْجَبَّارَةُ،

وَقَتَلَتْهَا الْعَاصِفَةُ قَتْلًا!»

(٢) حُزْنُ الشَّرَاشِيرِ

وَكَانَ شُرْشُورَانِ يَمْرُحَانِ عَلَى حَافَةِ الْأَجْمَةِ، فَسَمِعَا هَمْسَ النَّسِيمِ وَأَصْغَيَا إِلَى كُلِّ مَا قَالَهُ؛
فَتَمَلَّكُهُمَا الدَّهْشُ وَالْعَجَبُ.
فَقَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ»:
«أَتَصَدِّقُ هَذَا النَّبَأَ الْهَائِلَ! إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ تَصْدِيقَهُ!»
فَأَجَابَهَا «أَبُو بَرَّاقِشَ»:
«مَا أَظْنُهُ كَاذِبًا فِيمَا قَالَ؛ فَلْنَنْظُرْ إِلَيْهَا لِنَتَنَبَّأَ.»
فَأَقْرَنَتْهُ «أُمُّ شَرْشَرَةَ» عَلَى رَأْيِهِ.



ثُمَّ طَارَ الشَّرْشُورَانِ — مِنْ فَوْرِهِمَا (تَوًّا) — وَأَخْفَقَا (ضَرْبًا بِأَجْبَحَتَيْهِمَا)، وَسُرِعَانَ مَا وَصَلَا إِلَى شَجَرَةِ الْبُلُوطِ. وَثُمَّ (هُنَاكَ) أَتَقْنَا أَنَّ النَّسِيمَ لَمْ يَكُنْ مَحْدُوعًا فِيمَا عَرَفَهُ، وَلَا كَاذِبًا فِيمَا قَرَّرَهُ.

لَقَدْ رَأَى الشَّرْشُورَانِ مَصْرَعَ جَبَّارَةِ الْغَابَةِ، وَحَزْنَتُهُمَا تِلْكَ الْخَاتِمَةُ الْمُؤَلَّمَةُ، وَهَالَهُمَا (أَخَافُهُمَا) أَنْ يَرِيَا جِسْمَهَا الْكَبِيرَ مَطْرُوحًا عَلَى الْأَعْشَابِ، وَقَدْ اقْتَلَعَتِ الْعَاصِفَةُ جُذُورَهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَحَطَّمَتْ أَغْصَانَهَا بِلَا رَحْمَةٍ.

وَنَظَرَ الشَّرْشُورَانِ إِلَى شَجَرَةِ الْبُلُوطِ بِعُيُونٍ دَامِعَةٍ.

وَقَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ» بِصَوْتٍ خَافَتْ:

«أَلَا تَرَى هَذِهِ النُّكْبَةَ الْهَائِلَةَ؟ لَا جَرَمَ (حَقًّا) أَنَّهَا خَسَارَةٌ فَادِحَةٌ، يَا أَبَا بَرَاقِشَ. وَسَيَحْزَنُ عَلَيْهَا إِحْوَتُنَا الشَّرَاشِيرُ، وَغَيْرُهَا مِنَ الطُّيُورِ.»

فَأَجَابَهَا «أَبُو بَرَاقِشَ»، وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْأَسَى وَالْحُزْنُ:

«صَدَقَتْ — يَا أُمُّ شَرْشَرَةَ — فَهِيَ نُكْبَةٌ جَسِيمَةٌ، وَخَسَارَةٌ لَا تُعَوِّضُ. لَقَدْ انْقَضَى الْيَوْمَ عَهْدُ (انْتَهَى زَمَنُ) سَعِيدٍ، طَالَمَا نَعْمَنَا بِهِ بَيْنَ أَغْصَانِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ الْعُجُوزِ. وَلَنْ نَنْظُرَ — بَعْدَ الْآنَ — بِمَا نَعْمَنَا بِهِ فِي ظِلَالِهَا الْوَارِفَةِ الْمَبْسُوطَةِ مِنَ الْمَرْحِ وَالزَّقَزَقَةِ، وَتَمَثِيلِ أَدْوَارِ الْإِسْتِخْفَاءِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَلْعَابِ الْبَهِيجَةِ.

وَمَا أَشَدَّ حُزْنَنَا لِمَصْرَعِكَ، وَمَا أَشَدَّ أَلَمَنَا لَوْدَاعِكَ، أَيُّنْهَا الشَّجَرَةُ الْعَزِيزَةُ عَلَيْنَا! فَلَقَدْ طَالَمَا خَفَقْنَا (طَرَنَّا) وَأَوَيْنَا إِلَيْكَ (اتَّخَذْنَاكَ لَنَا مَنْزِلًا)؛ فَأَوَيْتَنَا، كَمَا أَوَيْتَ غَيْرَنَا مِنْ كِرَامِ الطَّيْرِ، وَأَنْقَذْتَ أَرْوَاحَنَا وَأَرْوَاحَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ. وَكَمْ حَبَاتُ أَغْصَانِكَ الْكَبِيرَةِ مِنْ طُيُورٍ كَانَتْ تَلُودُ (تَلَجَّأُ وَتَحْتَمِي) بِكَ، كُلَّمَا رَأَتْ «أَبَا الْأَشْعَبِ»: ذَلِكَ الْبَارِزِي الشَّرِسَ، وَهُوَ يَتَلَمَّسُهَا (يَتَطَلَّبُهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى) جَاهِدًا فِي بَحْثِهِ عَنْهَا؛ فَلَا يَظْفَرُ مِنْهَا بِطَائِلٍ (لَا يَرْجِعُ بِفَائِدَةٍ). وَكَمْ وَقَيْنَهَا غَائِلَةُ الْعِقْبَانِ! وَلَسْتُ أَنْسَى تِلْكَ الْأُسْرَةَ مِنَ الْعِقْبَانِ الْفَتَاكَةِ (الْمُفْتَرِسَةِ)، حِينَ قَدِمَ الْغَرْنُ: رَبُّ تِلْكَ الْأُسْرَةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يُحَادِثُ زَوْجَهُ: «الْقَنَوَاءَ» وَوَلَدَهُ «النَّاهِضَ». وَقَدْ تَمَلَّكُهُ الْغَضَبُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْنُرْ عَلَى طَائِرٍ وَاحِدٍ يَأْكُلُهُ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ»: «وَهَلْ نَسِيتَ أُسْرَةَ النُّسُورِ الَّتِي وَفَدْتَ عَلَيْنَا — مُنْذُ أَسَابِيحَ —

وَقَدْ ضَاعَ تَعَبُ «الضَّرِيكِ» رَبِّ تِلْكَ الْأُسْرَةِ، وَزَوْجِهِ «الْعِتْرَةِ» وَوَلَدَهَا «الْهَيْثِمَ»، بِلَا طَائِلٍ

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ



(بَغَيْرِ فَائِدَةٍ)؛ لِأَنَّ الطُّيُورَ قَدْ اخْتَبَأَتْ بَيْنَ أَغْصَانِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ، فَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهَا عَيْنُ كَائِنٍ كَانُ؟»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقِشَ»: «كَلَّا، لَمْ أَنْسَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ. وَكَمْ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ الْعَزِيزَةِ عَلَيْنَا مِنْ مَآثِرٍ (مَكْرَمَاتٍ) وَأَيَادٍ لَا تُحْصَى (نَعَمْ لَا تُعَدُّ)!»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشَرَةَ»: «لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ هَذِهِ الْجَبَّارَةَ لَا تَمُوتُ!»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقِشَ»: «لَمْ يَكُنْ يَدُورُ بِخَلْدِي (يَمُرُّ بِبَالِي) قَطُّ أَنَّ هَذِهِ الْجَبَّارَةَ تَهْلِكُ (تَمُوتُ)، لِأَنَّهَا مِثَالُ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَصْرَعَهَا (مَقْتَلَهَا) سَيُخْزِنُ أَصْدِقَاءَنَا، حِينَ يَعْلَمُونَ نَبَأَهُ الْهَائِلَ (خَبْرَهُ الْمُخْزِنَ). وَالْآنَ — وَقَدْ انْقَضَى هَذَا الْعَهْدُ السَّعِيدُ، وَذَهَبَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ الْهَنِيئَةُ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ — أَجِدُنِي مُتَالِمًا حَزِينًا، وَأَنَا أَسْأَلُ نَفْسِي: تَرَى كَيْفَ تَعِيشُ السَّنَاجِبُ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ؟»

لَعَلَّكَ رَأَيْتَ السَّنْجَابَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — فِي حَدِيقَةِ الْحَيَوَانِ، وَلَعَلَّكَ لَا تَزَالُ تَذْكُرُ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الطَّوِيلَ الذَّنْبِ، الْحَسَنَ الشَّعْرِ، الَّذِي يُشَبَّهُ بِلُونِهِ، فَيُقَالُ اللَّوْنُ السَّنْجَابِيُّ!

وَأَسْتَأْنَفُ «أَبُو بَرَأَقَش» قَائِلًا: «تُرَى كَيْفَ تَظْفَرُ هَذِهِ السَّنَاجِيبُ بِطَعَامِهَا فِي فَصْلِ الشَّتَاءِ، وَقَدْ حُرِمَتْ الْقُسْطَلُ — ثَمَرُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ النَّافِعَةِ — الَّذِي هُوَ أَشْهَى ثَمَارٍ فِي الْأَجْمَةِ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»، وَهِيَ تَقْفِرُ حَوْلَ الشَّجَرَةِ الْهَالِكَةِ: «خَبِّرْنِي — يَا أَبَا بَرَأَقَش — أَتَرَاهُمْ يَتْرَكُونَ هَذِهِ الْجَبَّارَةَ الصَّرِيعَ، طُولَ فَصْلِ الشَّتَاءِ، فِي هَذَا الْمَكَانِ؟»

فَأَجَابَهَا «أَبُو بَرَأَقَش»: «كَلَّا يَا عَزِيزَتِي؛ فَإِنَّ رِجَالَ الْقَرْيَةِ سَيَحْضُرُونَ لِلْإِحْتِطَابِ (اِقْتِطَاعِ الْحَطَبِ)، بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَلَنْ يَتْرُكُوهَا حَيْثُ هِيَ؛ لِأَنَّ حَشَبَ الْبُلُوطِ عَظِيمُ الْفَائِدَةِ، جَلِيلُ النَّفْعِ لِلنَّاسِ. وَقَدْ حَدَّثْتَنِي أُخْتِي «أُمُّ بَرَقَش» أَنَّ النَّاسَ يَبْنُونَ مِنَ الْبُلُوطِ بُيُوتًا كَبِيرَةً، تَمْشِي عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، يُسْمُونَهَا: سَفْنَا وَبَوَاحِرَ وَمَرَكَبَ.»

فَصَاحَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ» بِصَوْتٍ حَزِينٍ: «يَا لَكَ مِنْ جَبَّارَةٍ تَاعِسَةٍ، أَيُّهَا الشَّجَرَةُ الْعَجُوزُ. وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ لَكَ تَارِيخًا حَافِلًا. فَمَنْ لَنَا بِأَنْ نَتَعَرَّفَ قِصَّتَكَ؟»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقَش»: «صَدَقْتَ — يَا زَوْجِي الْعَزِيزَةُ — فَإِنِّي شَدِيدُ الشَّوْقِ إِلَى تَعَرُّفِ قِصَّةِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ الصَّرِيعِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»: «فَلْنَذْهَبْ إِلَى «أَبِي الْخُطَّافِ»، أَعْنِي ذَلِكَ الْحِدَاةَ الذَّكِيَّ، لِنَتَعَرَّفَ مِنْهُ قِصَّةَ الْجَبَّارَةِ الْهَالِكَةِ.»

فَقَالَ لَهَا «أَبُو بَرَأَقَش»: «كَلَّا يَا عَزِيزَتِي، بَلْ نَذْهَبْ إِلَى «ابْنِ دَائِيَّةَ»: ذَلِكَ الْعَقْعُقُ الْهَرَمُ (الْغُرَابُ الْمُسِنُّ)؛ لِيَقْصَّ عَلَيْنَا أَنْبَاءَ الشَّجَرَةِ. فَهُوَ — وَحْدَهُ — خَبِيرٌ بِتَارِيخِهَا كُلِّهِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»: «أَتُظَنُّهُ أَعْلَمَ مِنْ «أَبِي الْخُطَّافِ» بِتَارِيخِهَا؟»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقَش»: «لَيْسَ فِي هَذَا شَكٌّ، فَهُوَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»: «هَلُمَّ (تَعَالِ)، فَلْنَذْهَبْ إِلَيْهِ جَمِيعًا.»

(٣) ابْنُ دَايَةَ

كَانَ «ابْنُ دَايَةَ» عَقَقًا ذَكِيًّا، طَاعِنًا فِي السِّنِّ. وَكَانَ بَعْضُ النَّاسِ يُطْلِقُ عَلَيْهِ اسْمَ «الْغَرَابِ النُّوجِيِّ» — لِكَثْرَةِ نَوَاجِحِهِ (بُكَائِهِ) — كَمَا كَانَ الْأَحْرُونَ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اسْمَ «الْعَقَقِ»؛ لِأَنَّهُ يُكْثِرُ مِنَ النُّطْقِ بِكَلِمَةِ «عَقَى — عَقَى».

وَكَانَ «ابْنُ دَايَةَ» هَذَا شَيْخًا مُسِنًّا — كَمَا قُلْنَا — فَأَصْبَحَ — لِضَعْفِهِ — لَا يَكَادُ يَبْرُحُ وَكِرَهُ (قَلَمًا يُفَارِقُ عُشَّهُ) الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ، فِي رَأْسِ شَجَرَةٍ بَاسِقَةٍ (عَالِيَةٍ) مِنْ أَشْجَارِ الْحُورِ. وَقَدْ ضَعُفَ بَصَرُ (ابْنِ دَايَةَ) مِنَ الْكِبَرِ، وَانْتَابَتْهُ أَعْرَاضُ الشَّيْخُوخَةِ؛ فَأَصْبَحَ لَا يَكَادُ يُبْصِرُ شَيْئًا، وَتَسَاقَطَ رِيشُهُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ.

وَلَمَّا وَصَلَ الشُّرْشُورَانِ إِلَى وَكْرِ الْعَقَقِ، سَلَّمَا عَلَيْهِ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمَا التَّحِيَّةَ، بَعْدَ أَنْ عَرَفَ صَوْتَهُمَا. ثُمَّ قَالَ لَهُمَا بِصَوْتِهِ الْأَبَحِّ (الْغَلِيظِ الَّذِي فِيهِ بُحَّةٌ): «أَهْلًا وَسَهْلًا بِكُمَا، أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ الصَّغِيرَانِ!»

فَقَالَ لَهُ: «سَعِدَ يَوْمُكَ، يَا عَمَّنَا الْعَزِيزَ».

وَأَمَّا أَطْلَقًا عَلَيْهِ اسْمُ: الْعَمِّ — وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا عَمًّا — لِأَنَّ طُيُورَ الْبَلَدِ كُلَّهَا تَعَوَّدَتْ أَنْ تُنَادِيَهُ بِهَذَا اللَّقَبِ.

ثُمَّ قَالَ الشُّرْشُورَانِ: «كَيْفَ صِحَّتُكَ — فِي هَذَا الصَّبَاحِ — يَا عَمَّنَا «ابْنُ دَايَةَ»؟»

فَقَالَ لَهُمَا: «لَيْسَتْ عَلَى مَا يُرَامُ (لَيْسَتْ كَمَا أَحَبُّ وَأَشْتَهِي) يَا عَزِيزَيَّ. فَقَدْ رَابَنِي بَصَرِي (لَقِيتُ بِهِ مَا أَكْرَهُ)؛ فَلَا أَكَادُ أَبْصِرُ شَيْئًا. فَخَبَّرَانِي: مَاذَا عِنْدَكُمَا مِنَ الْأَنْبَاءِ الْجَدِيدَةِ؟»

فَقَالَ لَهُ: «أَلَا تَعْرِفُ — يَا عَمَّنَا — أَنَّ الْعَاصِفَةَ قَدْ اقْتَلَعَتْ شَجَرَةَ الْبُلُوطِ الْعَجُوزَ، الَّتِي نُطْلِقُ عَلَيْهَا اسْمَ «جَبَّارَةِ الْغَابَةِ»؟»

فَذَعَرَ «الْعَقَقُ» (خَافَ)، وَوَقَفَ عَلَى إِحْدَى رِجْلَيْهِ، وَقَالَ مَدْهُوشًا: «أَيَّ نَبَأٍ تَحْمِلَانِ؟ وَكَيْفَ تَقُولَانِ؟ أَجَبَّارَةُ الْغَابَةِ تَعْنِيَانِ؟ كَيْفَ هَلَكَتْ؟ لَعَلَّكُمَا تَرِيدَانِ أَنْ تَعْبَثَا (تَهْزَأَا) بِي، وَتَضْحَكَا مِنِّي!»



فَقَالَ الشُّرُورَانِ: «كَلَّا، كَلَّا — يَا أَبَا عَقْعَقٍ — لَيْسَ مَزَاحًا مَا نَقُولُ. إِنَّهَا الْحَقِيقَةُ
الرَّاهِنَةُ (الْحَاضِرَةُ الْوَاقِعَةُ) الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا، وَقَدْ جِئْنَا نَسْأَلُكَ: هَلْ تَعْرِفُ قِصَّةَ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ وَتَارِيخُهَا؟»

فَقَالَ «الْعَقْعَقُ» مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا: «قِصَّتُهَا وَتَارِيخُهَا؟ كَيْفَ أَجْهَلُهُمَا؟ وَمَنْ أَعْرِفُ
بِهِمَا مِنِّي وَأَخْبِرُ؟ أَجَلْ (نَعَمْ) أَعْرِفُهُمَا عَلَى التَّحْقِيقِ. وَقَدْ حَدَّثْتَنِي أُمِّي بِهِمَا — رَحِمَهُ اللَّهُ
عَلَيْهَا — أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ... مَسْكِينَةُ شَجَرَةِ الْبُلُوطِ! أَمَاتَتْ؟ هَا نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ فَقَدْنَا صَدِيقًا
كَرِيمًا، عَزِيزًا عَلَيْنَا أَنْ نَفْقِدَهُ!»

(٤) نَشَأَةُ الْجَبَّارَةِ

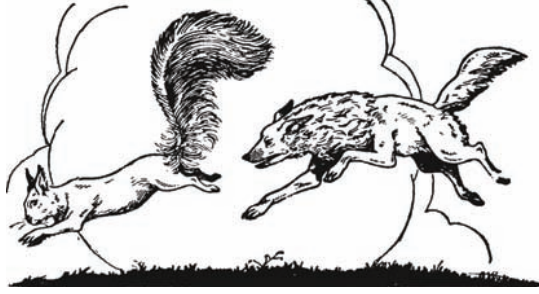
وَجِئْمْ (قَعْدَ) الشُّرْشُورَانِ عَلَى حَافَةِ الْعُشِّ، وَوَقَفَ الْعَفْقُ، ثُمَّ قَالَ مُتَحَسِّرًا مُتَفَجِّعًا:
«إِلَيْكُمَا (خُذَا) — يَا عَزِيزَيَّ — قِصَّةَ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ الْعُجُوزِ: لَقَدْ حَدَثَ، مُنْذُ زَمَنٍ
بَعِيدٍ، بَعِيدٍ جِدًّا، قَبْلَ أَنْ تُوَلَّدَ أَشْجَارُ هَذَا الْبَلَدِ كُلِّهِ — الَّتِي تَرَيَانَهَا أَمَامَكُمَا — أَنْ سَقَطَتْ
ثَمَرَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ هِيَ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ، الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ
الْغَابِرِ. وَكَانَ فِي تِلْكَ الثَّمَرَةِ طِفْلٌ صَغِيرٌ، رَاقِدٌ فِي مَهْدِهِ، وَهُوَ — فِي مُسْتَهْلٍ حَيَاتِهِ —
ضَعِيفٌ لَا قُوَّةَ لَهُ. وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْجَنِينُ إِلَّا بَذْرَةً صَغِيرَةً مِنْ نَوْعِ الْبُذُورِ الَّتِي تَرَيَانَهَا فِي
ثَمَارِ الْبُلُوطِ. وَلَمْ يَكُنْ لِلْجَنِينِ أُمْنِيَّةٌ أَشْهَى (أَحَبُّ) إِلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَعْيشَ بِالْقُرْبِ مِنْ أُمِّهِ
الْعَزِيزَةِ، حَيْثُ يَحْيَا فِي أَمْنٍ وَدَعَةٍ (رَاحَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ)، تَحْتَ أَغْصَانِهَا الْكَثِيفَةِ. وَلَكِنْ يُرِيدُ
الْمَخْلُوقُ أَمْرًا، وَيُرِيدُ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — أَمْرًا آخَرَ. وَلَا مَرَدَّ لِمَشِيئَةِ الْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ الْقَوِيِّ
الْعَزِيزِ. سَقَطَتْ ثَمَرَةٌ عَلَى الْأَرْضِ — كَمَا حَدَّثْتُكُمَا — فَهَلْ تَعْلَمَانِ مَاذَا حَدَثَ؟

لَقَدْ أَلَمَتْهَا السَّقْطَةُ، وَأَذْهَلَهَا (أَنَسَاهَا) الْأَلَمُ، حَتَّى كَادَتْ تَفْقِدُ رُشْدَهَا. وَإِنَّهَا لَتُعَانِي
(تُقَاسِي) أَلَمَ السَّقُوطِ، إِذْ بَصَرَ بِهَا سَنَجَابٌ، فَانْقَضَ عَلَيْهَا لِيَأْكُلَهَا. فَانْزَعَجَ الْبُلُوطِيُّ
الْجَنِينُ، وَاشْتَدَّ خَوْفُهُ، وَأَيَقَنَ أَنَّهُ — لَا مَحَالَةَ — هَالِكٌ. وَلَكِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — كَتَبَ لَهُ
السَّلَامَةَ مِنَ الْهَلَاكِ، وَقَبِضَ (هَيَأَ) لَهُ الْفَرْجَ، وَبَدَّلَ يَأْسَهُ رَجَاءً.

أَتَعْرِفَانِ كَيْفَ نَجَا الْجَنِينُ؟

لَقَدْ سَمِعَ عَوَاءٌ عَالِيًا: «عَوَا! عَوَا!» فَأَيَّ صَوْتٍ سَمِعَ؟ إِنَّهُ عَوَاءُ الْكَلْبِ. فَلَقَدْ نَشِطَ «ابْنُ
وَارِعٍ» — وَهُوَ كَلْبٌ كَانَ يَعْيشُ قَرِيبًا مِنْ هَذِهِ الْمُنْطَقَةِ — فَرَاخَ يَجْرِي مُسْرِعًا، وَهُوَ
يَعُوي خَلْفَ السَّنَجَابِ؛ لِيَلْحَقَ بِهِ وَيَفْتَرِسَهُ. فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ السَّنَجَابِ (الْفَرَائِصُ جَمْعُ:
فَرِيسَةٍ: وَهِيَ لَحْمَةٌ — بَيْنَ الْجَنْبِ وَالْكَتِفِ — تَهْتَزُّ عِنْدَمَا يَكُونُ الْخَوْفُ).

وَسُرْعَانَ مَا أَلْقَى السَّنَجَابُ ثَمَرَةَ الْبُلُوطِ الصَّغِيرَةَ، وَلَجَأَ إِلَى الْفِرَارِ حَتَّى لَا يَفْتِكَ بِهِ
«ابْنُ وَارِعٍ» (لَكِي لَا يَفْتَرِسَهُ الْكَلْبُ).



(٥) مَوْطِنُ الشَّحَارِيرِ

وَلَبِثَ الْبُلُوطِيُّ الْجَنِينُ — مُنْذُ ذَلِكَمَ الْحِينِ — بَاقِيًا عِنْدَ حَافَةِ دَوْحَةٍ كَبِيرَةٍ، هِيَ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ مُتَسَّعَةٌ، عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ سِيَاحٍ كَبِيرٍ مِنْ أَشْجَارِ الْبُنْدُقِ. وَظَلٌّ فِي مَهْدِهِ رَاقِدًا مُسْتَسْلِمًا لِنَوْمٍ عَمِيقٍ — طَوَالَ الشِّتَاءِ — تَحْتَ الْحَشَائِشِ الْيَابِسَةِ الَّتِي يُغَطِّيهَا الْجَلِيدُ فِي ذَلِكَمَ الْفَصْلِ.

وَكَانَتِ الشَّحَارِيرُ تَغْشَى هَذَا الْمَكَانَ، وَتَحْتَلِفُ إِلَيْهِ، وَتُؤَثِّرُهُ (تَحْتَارُهُ) عَلَى غَيْرِهِ — مِنْ أَنْحَاءِ الْأَجَمَةِ — وَتَلْتَقِي عِنْدَهُ، لِنَتْنَاقِلِ أَسْمَارَهَا (أَحَادِيثَهَا الْجَمِيلَةَ)؛ فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ النَّاسُ اسْمَ «أَجَمَةِ الشَّحَارِيرِ».

(٦) يَقْظَةُ الطِّفْلِ

وَلَمَّا جَاءَ الرَّبِيعُ التَّالِي، اسْتَيْقَظَتْ بَذْرَةُ الْبُلُوطِ مِنْ سُبَاتِهَا (مِنْ نَوْمِهَا الْعَمِيقِ). فَأَحَسَّتْ جُوعًا شَدِيدًا، وَاشْتَهَتْ نَفْسُهَا الطَّعَامَ. فَلَمْ يَلْبَّ طَلِبَهَا أَحَدٌ ... وَمَنْ لَهَا بِأَمِّهَا الَّتِي تُعْنَى (تَهْنَمُ) بِهَا، وَتُلَبِّي رَغْبَاتَهَا؟

لَقَدْ نَشَأَ هَذَا الطِّفْلُ النَّبَاتِيُّ — كَمَا حَدَّثْتُكُمَا — بَعِيدًا عَنْ أُمِّهِ. وَقَدْ شَعَرَ بِوَحْدَتِهِ وَضَعْفِهِ؛ فَحَزَنَ لِذَلِكَمَ، وَاشْتَدَّ أَلَمُهُ. وَلَوْ اسْتَطَاعَ الْبُكَاءَ لَبَكَى، كَمَا يَبْكِي الطِّفْلُ الْحَيَوَانِيُّ.

وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ — بَعْتَهُ — أَنَّ أُمَّهُ وَضَعَتْ فِي مَهْدِهِ، قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَهَا، وَسَادَتَيْنِ (مَحْدَتَيْنِ) صَغِيرَتَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ بِطَعَامِهِ، وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالذَّقِيقِ. وَقَدْ تَحَوَّلَ هَذَا الطَّعَامُ — تَحْتَ الْأَرْضِ الرُّطْبَةِ — عَجِينَةً. فَلَمَّا طَعِمَهَا (ذَاقَهَا) الطِّفْلُ الْبُلُوطِيُّ، اسْتَسَاغَهَا (اسْتَطْعَمَهَا)، وَهَسَّ لَهَا (ارْتَاخَ وَابْتَهَجَ). ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الطَّعَامِ — فِي شَرِّهِ عَجِيبٍ — حَتَّى نَمَا جِسْمُهُ، وَكَبِرَ جِرْمُهُ (حَجَمُهُ)؛ فَضَاقَ بِهِ مَهْدُهُ. وَشَعَرَ الطِّفْلُ بِضِيقِ هَذَا السَّرِيرِ؛ فَتَسَلَّلَ مِنْ بَيْنِ هَاتَيْنِ الْوَسَادَتَيْنِ، بَعْدَ أَنْ أَكَلَ مَا تَحْوِيَانِهِ — مِنَ الْغِذَاءِ — وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْئًا يُذَكِّرُ. وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى عَالَمِ الْأَرْضِ، تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ (تَنَفَّسَ طَوِيلًا)، وَابْتَهَجَ وَشَعَرَ بِفَرَحٍ لَا مِثِيلَ لَهُ.

ثُمَّ تَحَوَّلَ — بَعْدَ قَلِيلٍ — إِلَى مَاذَا؟ أَلَا تَعْرِفَانِ؟ تَحَوَّلَ إِلَى جَذْرِ (أَصْلِ) صَغِيرٍ، كَمَا تَتَحَوَّلُ بُدُورُ النَّبَاتِ كُلِّهَا. وَشَقَّ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا مُسْتَقِيمَةً عُمُودِيَّةً فِي جَوْفِ الْأَرْضِ! وَمَا زَالَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ يَرْتَوِي بِالْمَاءِ، وَيَتَغَذَّى بِعَصِيرِ الْأَرْضِ — وَقَدْ اسْتَغْنَى عَنِ الْعَجِينَةِ الْأُولَى الَّتِي حَدَّثْتُكُمَا عَنْهَا — ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ غُلَامًا. وَلَكِنَّ الضُّجْرَ لَازِمَهُ، لِوَحْدَتِهِ وَوَحْشَتِهِ. وَمَا أَجْدَرَهُ بِذَلِكَمَا؛ فَإِنَّ الْعُزْلَةَ تُسَيِّمُ وَتُضْجِرُ. فَلَا تَعْجَبَا إِذَا أَخْبَرْتُكُمَا أَنَّهُ كَانَ يَتَنَهَّدُ وَيَتَحَسَّرُ — طُولَ النَّهَارِ — وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ:

«أه! مَنْ لِي بِأَنْ أَخْرُجَ مِنْ هَذَا السَّجْنِ الضَّيِّقِ، إِلَى ظَاهِرِ الْأَرْضِ، لِأَرَى جَمَالَ الدُّنْيَا! وَلَعَلِّي أَظْفَرُ — إِذَا تَمَّ لِي هَذَا — بِأَصْدِقَاءَ خُلَصَاءَ يُبَادِلُونَنِي الْحُبَّ وَالْوَلَاءَ.»

(٧) فِي عَالَمِ الضَّوءِ

وَكَانَ الطِّفْلُ الْبُلُوطِيُّ صَبُورًا شَجَاعًا: شَأْنُ أَطْفَالِ الْبُلُوطِ جَمِيعًا. فَظَلَّ صَاحِبُنَا يَدْفَعُ رَأْسَهُ — بِكُلِّ مَا أُوتِيَهِ مِنْ قُوَّةٍ — لِيَرْفَعَ سَقْفَ هَذَا السَّجْنِ، حَتَّى أَدْرَكَ أُمْنِيَّتَهُ، وَظَفَرَ بِطَلْبَتِهِ (فَارَ بِمَطْلَبِهِ).

وَنَمَّةٌ أَصْبَحَ فِي عَالَمِ الضَّوءِ — بَعْدَ أَنْ طَالَ احْتِبَاسُهُ فِي عَالَمِ الظَّلَامِ — فَابْتَهَجَ لِهَذَا، وَاشْتَدَّ فَرَحُهُ، وَتَمَلَّكَهُ الزَّهْوُ (اسْتَوَى عَلَى نَفْسِهِ الْإِعْجَابُ)؛ فَظَلَّ يَهْتَزُّ — يَمْنَةً وَيَسْرَةً — وَهُوَ فَرَحَانٌ بِسَاقِهِ الْجَمِيلِ، وَوَرَقَتَيْهِ الْخَضِرَاوَيْنِ. وَكَانَ الطِّفْلُ الْبُلُوطِيُّ جَدِيرًا بِهَذَا الزَّهْوِ: فَقَدْ أُعْجِبَ بِهِ كُلُّ مَنْ رَأَاهُ.



وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ فَرَّاشَةً جَمِيلَةً، تُحْيِيهِ وَتَطِيرُ حَوْلَهُ فَرِحَةً مَسْرُورَةً، وَابْتَسَمَتْ لَهُ شَقَائِقُ
النُّعْمَانِ الْبَيْضَاءِ، وَحَيَّيْتُهُ تَحِيَّةَ الْإِعْجَابِ.

وَجَاءَتْ جَرَادَةٌ تَرْفِرُ عَلَيْهِ بِجَنَاحِهَا، وَتُرَحِّبُ بِمَقْدَمِهِ. وَلَمْ يُنْغِصْ عَلَيْهِ صَفْوَهُ إِلَّا
دُوبِيَّةَ الْحَلْزُونِ، تَلْكُمَا الدُّوبِيَّةَ (الدَّابَّةَ الصَّغِيرَةَ) الْبَغِيضَةَ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ — لِسُوءِ
أَدَبِهَا — تَمْسُهُ بِقَرْنَيْهَا؛ فَيُؤْلِمُهُ مَسُّهَا، وَيَكْرُبُهُ (يَسُوءُهُ) لَمْسُهَا.

فَإِذَا أَقْبَلَ الْمَسَاءَ، جَاءَتْ دُودَةٌ زَاحِفَةٌ مِنْ خِلَالِ الْحَشَائِشِ، حَتَّى إِذَا اقْتَرَبَتْ مِنْ
الْغُلَامِ الْبُلُوطِيِّ، فَرِحَتْ بِرُؤْيَيْهِ، وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا مُبْتَهَجَةً: «مَا أَلَذَّةُ عَشَاءٍ، وَمَا أَشْهَاهُ
طَعَامًا!»

ثُمَّ تُسْرِعُ الدُّودَةُ إِلَى نَبَاتِ الْبُلُوطِ، وَقَدْ فَرِحَتْ بِاهْتِدَائِهَا إِلَى هَذَا الْعَشَاءِ الْفَاحِرِ،
وَتَصْعَدُ إِلَى سَاقِهِ مُتَسَلِّقَةً فِي خِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ. وَلَا تَزَالُ تَقْرِضُ أَطْرَافَ أَوْرَاقِهِ وَتَقْضِمُهَا
(تَأْكُلُهَا بِأَطْرَافِ أَسْنَانِهَا)، وَهُوَ يَرْتَجِفُ مِنَ الْأَلَمِ، وَيَذْكُرُ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ تُحَدِّثُهُ — وَهُوَ
عَلَى غُصْنِهَا — أَنَّ النَّبَاتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْأَوْرَاقِ، لِيَتَنَفَّسَ مِنْهَا. وَثُمَّ يَشْتَدُّ بِهِ الْأَلَمُ، وَيُبْرِحُ
بِهِ (يُؤْذِيهِ) الْحُزْنُ؛ حَتَّى لَيَوُدُّ لَوْ أُتِيحَ (لَوْ تَهَيَّأَ) لَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى جَوْفِ الْأَرْضِ ثَانِيَةً، فَلَا
يُعْرِضُ نَفْسَهُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأَذِيَّةِ. وَلَا تَزَالُ الدُّودَةُ دَائِبَةً عَلَى قَرْضِ الْوَرَقَةِ الْخَضِرَاءِ الْجَمِيلَةِ،
حَتَّى تَأْتِيَ عَلَيْهَا (تَأْكُلَهَا كُلُّهَا).

(٨) حَارِسُ النَّبَاتِ

ثُمَّ يَسْمَعُ الْغُلَامُ الْبُلُوطِيُّ خَفَقَ أَجْنَحَةٍ تَقْتَرِبُ مِنْهُ فَجَاءَهُ، ثُمَّ تَضْرِبُ رَأْسَهُ ضَرْبَةً قَوِيَّةً؛ فَتَذْهَلُهُ (تَنْسِيهِ)، وَتَرْنَحُهُ (تَضْعُفُهُ). وَلَا يَتَعَرَّفُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ، حَتَّى يُبْصِرَ طَائِرًا يَطِيرُ، وَفِي مَنْقَارِهِ الدُّودَةُ الْبَاغِيَّةُ (الظَّالِمَةُ) الَّتِي اعْتَدَتْ عَلَى أَوْرَاقِهِ. فَيَشْكُرُ لَهُ صَاحِبُنَا الْغُلَامُ الْبُلُوطِيُّ هَذِهِ الْيَدَ (الْحَسَنَةَ وَالْفَضْلَ)، وَلَا يَنْسَى لَهُ الْجَمِيلَ. وَلَا يَزَالُ الصَّغِيرُ الْبُلُوطِيُّ يُحْيِيهِ وَيَشْكُرُ لَهُ صَنِيعَهُ (مَعْرُوفَهُ)، وَهُوَ يَقُولُ:

لَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ بِأَعْجُوبَةٍ خَارِقَةٍ (غَيْرِ عَادِيَّةٍ). فَيَا لَيْتَ شِعْرِي (لَيْتَنِي أَعْلَمُ) كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرِي لَوْ فَقَدْتُ هَذَا الطَّائِرَ الْحَارِسَ الْكَرِيمَ، الَّذِي يَحْمِي أَوْرَاقِي مِنَ التَّلَفِ؟»

(٩) أُسْرَةُ الْبُلُوطِ

كَانَ «ابْنُ دَايَةَ» يَقُصُّ هَذَا التَّارِيخَ الْعَجِيبَ الْحَافِلَ (الْمَمْلُوءَ بِالْحَوَادِثِ)، عَلَى «أَبِي بَرَاقِشَ» وَ«أُمِّ شَرْشَرَةَ»، وَهُمَا شَدِيدَا الْإِعْجَابِ بِمَا يَسْمَعَانِ. وَلَمْ تَفْتَهُمَا كَلِمَةً وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الطَّرِيفَةِ. فَلَمَّا وَصَلَ «ابْنُ دَايَةَ» فِي حَدِيثِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، صَمَتَ (سَكَتَ) قَلِيلًا لِيَسْتَرِيحَ. ثُمَّ اسْتَأْنَفَ (عَادَ يَتَكَلَّمُ) نَاعِبًا (مُصَوِّتًا)، يَقُولُ: «مَرَّ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ — أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ — سَنُونَ عِدَّةَ (سَنَوَاتٍ كَثِيرَةً)، فَقَوِيَ نَبْتُ الْبُلُوطِ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ شَجَرَةً كَبِيرَةً جَمِيلَةً، ذَاتَ جَذْعٍ (سَاقٍ) مَتِينٍ، وَأَوْرَاقٍ كَثِيفَةٍ، ظِلَالُهَا وَارِفَةٌ (وَاسِعَةٌ). وَصَارَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ الضَّعِيفُ أَمَّا شَدِيدَةُ الْقُوَى، أَنْجَبَتْ (وَلَدَتْ) أَبْنَاءً نَجَبَاءً؛ فَصَارَتْ لَهَا أُسْرَةٌ كَبِيرَةٌ الْعَدَدِ مِنْ شُجَيْرَاتِ الْبُلُوطِ الصَّغِيرَةِ.

وَكَانَتْ الْأُمُّ الْبُلُوطِيَّةُ كَثِيرَةَ الْحَنَانِ (عَظِيمَةَ الرَّحْمَةِ)، شَدِيدَةَ الْعُطْفِ عَلَى أَبْنَائِهَا، تَبْسُطُ ذِرَاعَيْهَا عَلَيْهِمْ، لِتَحْمِيَهُمْ خَطَرَ الْعَاصِفَةِ إِذَا هَبَّتْ وَعَنَقَتْ (اشْتَدَّتْ)، حَتَّى لَا يُصِيبَهُمْ أَيُّ سُوءٍ.

وَكَانَتْ الشُّجَيْرَاتُ مُمْتَلِئَةً قُوَّةً وَصَلَابَةً. وَلَا غَرَوْ (لَا عَجَبَ)، فَقَدْ كَانَتْ شَدِيدَةَ النَّهْمِ (كَثِيرَةَ الْجُرْصِ عَلَى الْأَكْلِ). وَقَدْ تَكَاثَرَ عَدَدُهَا — عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ — حَتَّى تَأَلَّفَ مِنْهَا أَجْمَةٌ مَمْلُوءَةٌ بِشَجَرِ الْبُلُوطِ الْجَمِيلِ. وَصَارَتْ الطُّيُورُ تَفِدُ (تَقْدُمُ) عَلَيْهَا وَتَجِيءُ إِلَيْهَا،

مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْجَوِّ — مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ — وَتُبْهِجُ الْغَابَةَ (تَسْرُّهَا) بِأَغَارِيدِهَا
(أَغَانِيدِهَا) الْجَمِيلَةِ، وَأَصْوَاتِهَا الْعُذْبَةِ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ — مِنْ أَيَّامِ شَهْرِ مَایو — قَالَتِ الْبُلُوطَةُ لِأَبْنَائِهَا الشُّجَيْرَاتِ الصَّغِيرَةِ:
«لَقَدْ حَانَ وَقْتُ ارْزِدْهَارِكُمْ (جَاءَ زَمَنُ إِشْرَاقِ حُسْنِكُمْ) وَنُمُوِّكُمْ؛ فَاقْبَلُوا عَلَى الْغَدَاءِ —
فِي نَهْمٍ — لِيَتِمَّ نَمَاؤُكُمْ، وَتَكْثُرَ ثَمَرَاتُكُمُ الَّتِي يَنْبُتُ — مِنْ بُذُورِهَا — أَبْنَاؤُكُمْ.»
ثُمَّ اسْتَأْنَفَتِ الْبُلُوطَةُ قَائِلَةً:

«وَا فَرَحَتَاهُ إِذَا تَمَّتْ لِي هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ؛ فَإِنِّي أَصْبِحُ حِينَئِذٍ جَدَّةً، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ أُمًّا!»

وَضَلَّتِ الْأَجْمَةُ سَعِيدَةً بِهَذِهِ الْأُسْرَةِ، وَكَانَتْ شُجَيْرَاتُ الْبُلُوطِ دَائِمَةً الْإِنْتِهَاجِ وَالْمَرَحِ، تَقْضِي
أَكْثَرَ أَوْقَاتِهَا فِي أَحَادِيثِ وَأَسْمَارِ طَرِيفَةٍ، وَتَهْزُ رُءُوسَهَا مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ؛ فَتَدْعُرُ (تَتَفَرَّعُ)
أَفْرَاحُ الطُّيُورِ (أَبْنَاؤُهَا الصَّغِيرَةُ)، وَلَا تَجْرُؤُ عَلَى أَنْ تَنَامَ بَيْنَ أَغْصَانِهَا، فَتُضْطَرُّ إِلَى الرُّقَادِ
فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى.

(١٠) مَصَارِعُ الْبُلُوطِ

وَلَكِنَّ السُّرُورَ لَا يَدُومُ طَوِيلًا فِي هَذَا الْعَالَمِ: عَالَمِ النَّبَاتِ جَمِيعًا. فَمَا أَسْرَعَ وَفُودَ الْحَطَّابِينَ
— فِي فَجْرِ الْأَيَّامِ الْمُتَقَارِبَةِ — عَلَى الْغَابَةِ، حَيْثُ يَذْعُرُونَ الطَّيْرَ وَالِدَوَابَّ، وَيُنْغَصُّونَ
(يُكْدِرُونَ) عَلَيْهَا صَفَاءَهَا، وَيَطْرُدُونَ نَوْمَهَا الْهَادِيءَ؛ فَتَهْرُبُ الطَّيْرُ وَالسَّنَاجِبُ، وَهِيَ
تَنْدُبُ سُوءَ حَظِّهَا، وَتَرْتَجِفُ شُجَيْرَاتُ الْبُلُوطِ، كُلَّمَا سَمِعَتْ رَنِينَ الْفُئُوسِ الثَّقِيلَةِ فِي
الْجُدُوعِ الصَّغِيرَةِ النَّاشِئَةِ.

وَلَا يَزَالُ النَّاسُ يَحْتَطِبُونَ (يَقْطَعُونَ الْحَطَبَ) حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسَاءُ. وَلَقَدْ لَقِيتُ كَثِيرًا
مِنْ شُجَيْرَاتِ الْبُلُوطِ مَصَارِعَهَا، وَأَنْطَرَحَتْ عَلَى الْأَرْضِ مَيِّتَةً لَا حَيَاةَ فِيهَا.
فَتَحَزَنُ أُمُّ الْبُلُوطِ لِهَلَاكِ بَنَاتِهَا، وَتَأْلُمُ — لِفِرَاقِهِنَّ — أَشَدَّ الْأَلَمِ.
ثُمَّ لَا يَلْبِثُ بَدْرُ السَّمَاءِ الْجَمِيلِ أَنْ يَسْطَعَ فَوْقَ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ (قِمَّتِهِ وَأَعْلَى مَكَانٍ فِيهِ)؛
فَتَقُولُ لَهُ الْأُمُّ الْحَزِينَةُ:



«خَبَّرَنِي أَيُّهَا الْبَدْرُ الْمُنِيرُ. حَدَّثَنِي أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْكَرِيمُ: لِمَاذَا يَقْتُلُ النَّاسُ أَوْلَادِي الْأَعْزَاءَ؟»

فَلَا تُتِمُّ قَوْلَهَا، حَتَّى تَعْتَزِضَ سَحَابَةٌ ضَوْءَ الْقَمَرِ؛ فَلَا تَسْمَعُ الْبُلُوطَةَ — لِسْوَالِهَا — رَدًّا. ثُمَّ لَا تَلْبَثُ النُّجُومُ أَنْ تَظْهَرَ فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ تَتَلَأَلُّ آلَافٌ مِنَ الْمَصَابِيحِ السَّمَوِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الْبَدِيعَةِ.

فَتَقُولُ لَهَا شَجَرَةُ الْبُلُوطِ مُسْتَفْسِرَةً:

«بِرَبِّكَ خَبِّرْنِي، يَا نُجُومَ السَّمَاءِ. بِرَبِّكَ لَا تَكْتُمِي الْحَقِيقَةَ عَنِّي، أَيُّتُهَا الصَّدِيقَاتُ الْعَزِيزَاتُ. حَدِّثِينِي: مَا الَّذِي أَغْضَبَ النَّاسَ مِنِّي، أَيُّتُهَا الْكَوَاكِبُ اللَّامِعَاتُ؟ لِمَاذَا افْتَحَمُوا

عَلَيَّ غَابَتِي، وَرَاحُوا يَعْتَدُونَ عَلَى أَهْلِي وَعَشِيرَتِي؟ لِمَذَا قَتَلُوا بَنَاتِي، أَيَّتُهَا النُّجُومُ الْمُؤْتَلَقَاتُ؟»

فَلَا تُجِيبُهَا الْكَوَكِبُ، وَلَا تَرُدُّ عَلَيْهَا النُّجُومُ!

وَلَا تَزَالُ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ سَاهِدَةً مُؤَرِّقَةً (سَاهِرَةً لَا يَزُورُهَا النَّوْمُ) لِحُزْنِهَا عَلَى أَبْنَائِهَا، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ؛ فَيَنْتَابُهَا الْمَرَضُ، وَيَحَاوِلُ أَصْدِقَاؤُهَا مِنْ طُيُورِ الْأَجَمَةِ أَنْ يَهْوَنُوا عَلَيْهَا مَا تَكَابِدُهُ مِنْ أَلَمٍ (مَا تَقَاسِيهِ مِنْ وَجَعٍ)؛ فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

(١١) عَزَاءُ الشُّحُرُورِ

فَإِذَا اقْتَرَبَ زَمَنُ الْخَرِيفِ أَصْفَرَّتْ أَوْرَاقُهَا، وَتَسَاقَطَتْ — وَاحِدَةً أُثْرَ أُخْرَى — وَتَجَوَّفَ جَذْعُهَا (صَارَ سَاقُهَا فَارِغًا)، وَأَيَقِنَ الْجَمِيعُ أَنَّ مَصْرَعَهَا وَشَيْكُ، وَأَصْبَحُوا يَتَرَقَّبُونَ مَوْتَهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

وَكَانَتْ الْبُلُوطَةُ لَا تَنِي (لَا تُبْطِئُ) عَنْ سُؤَالِ كُلِّ مَنْ رَأَتْهُ:

«لِمَذَا قَتَلَ النَّاسُ أَوْلَادِي؟»

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مَرَّ بِهَا شُحُرُورٌ شَيْخٌ، فَلَمَّا أَلَقَتْ عَلَيْهِ هَذَا السُّؤَالَ — وَقَدْ أَلَقَتْهُ عَلَى غَيْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ — قَالَ لَهَا:

«لَمْ يَقْتُلِ النَّاسُ أَوْلَادَكَ انْتِقَامًا مِنْكَ، كَمَا تَظُنِّينَ؛ فَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ تِرَةٌ (ثَأْرٌ) وَلَا عَدَاوَةٌ. إِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسُ أَبْنَاءَكَ، لِأَنَّهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِمْ؛ فَهُمْ يَتَدَفَّقُونَ بِأَجْسَامِهِمُ الْخَشَبِيَّةَ، وَلَا يَسْتَعْنُونَ عَنْ حَطْبِهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ يَسْتَعِينُونَ بِقَشَرِهِمْ فِي صُنْعِ بُعَالِهِمْ. وَحَسْبُكَ (يَكْفِيكَ) أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُكَ نَافِعِينَ؛ فَلَيْسَ أَبْهَجَ لِلنَّفْسِ مِنْ أَنْ تَشْعُرَ بِأَنَّهَا أَدَّتْ قِسْطَهَا (قَامَتْ بِنَصِيبِهَا) مِنْ خِدْمَةِ النَّاسِ!»

فَابْتَهَجَتْ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ، وَسَرَّى عَنْهَا (خَفَّ أَلَمُهَا)، حِينَ سَمِعَتْ كَلَامَ الشُّحُرُورِ، وَتَعَزَّتْ (تَصَبَّرَتْ) عَنْ فَقْدِ بَنَاتِهَا الْعَزِيزَاتِ.

ثُمَّ جَاءَ الرَّبِيعُ، فَأَخَذَتْ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ زِينَتَهَا، وَاسْتَعَادَتْ بَهْجَتَهَا. وَلَمْ يَحُلَّ الْخَرِيفُ، حَتَّى أَصْبَحَتْ أَغْصَانُهَا مُحَمَّلَةً بِزَهْرَاتٍ جَمِيلَةٍ بَرَّاقَةٍ.

(١٢) الْعُشُّ الصَّغِيرُ

وَهُنَا قَالَتْ «أُمُّ شَرَشَرَةٍ» لِـ«ابْنِ دَايَةَ»:

«مَعْدِرَةٌ — يَا ابْنَ دَايَةَ — إِذَا قَطَعْتُ عَلَيْكَ حَدِيثَكَ الْمُمْتَعِ؛ فَقَدْ ذَكَرْتُ الْآنَ شَيْئًا مُهِمًّا أُرِيدُ أَنْ تُفَسِّرَهُ لِي.»

فَقَالَ لَهَا «الْعُقُقُ»: «سَلِي مَا تَشَائِينَ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشَرَةٍ»:

«لَقَدْ رَأَيْتُ كُرَاتٍ حُمْرًا عَلَى وَرَقِ الْبَلُوطِ؛ فَلَمْ أَدْرِ: أَيُّ شَيْءٍ هِيَ؟

كَانَ ذَلِكَ فِي الصَّيْفِ الْمَاضِي إِبَّانَ (حِينَ) تَغَيَّبَ زَوْجِي «أَبِي بَرَاقِشَ»؛ فَذَهَبْتُ لِزِيَارَةِ إِحْدَى صَدِيقَاتِي مِنَ الْعَصَافِيرِ، وَظَلَّلْنَا نَمْرُحَ وَنَلْعَبُ مَعَ لُعبَةِ الْإِسْتِخْفَاءِ — بَيْنَ أَغْصَانِ شَجَرَةِ الْبَلُوطِ — فَلَمَحْتُ الْكُرَاتِ الْحُمْرَ. وَقَدْ أَعْجَبَنِي لَوْنُهَا الْبَدِيعُ الْقَانِي (الشَّدِيدُ الْحُمْرَةِ)؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَلَّهَا «كَرْزُ». ثُمَّ أَسْرَعْتُ إِلَيْهَا، فَنَقَرْتُهَا، وَهَمَمْتُ بِأَكْلِهَا. وَمَا تَذَوَّقْتُهَا حَتَّى وَجَدْتُ لَهَا طَعْمًا مَرًّا لَذَاعًا، كَادَ — لِمَرَاتِهِ وَلَذَعِهِ — يُحْرِقُ لِسَانِي، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي تَذَوَّقْتُ سَمًّا قَاتِلًا! فَقَالَ «ابْنُ دَايَةَ»، وَهُوَ يَهْزُ رَأْسَهُ سَاحِرًا:

«مَا أَعْجَبَ شَرَهَكَ، وَأَشَدَّ بَلَاهَتِكَ، يَا ابْنَةَ أَخِي الطَّائِشَةِ! كَيْفَ دَارَ بِخَلْدِكَ (كَيْفَ مَرَّ بِخَاطِرِكَ) أَنَّهَا «كَرْزُ»؟ وَهَلْ يَنْبُتُ الْكَرْزُ فِي شَجَرِ الْبَلُوطِ؟ فَكَيْفَ تَحْكُمِينَ، يَا عَزِيزَتِي؟

إِنَّ هَذِهِ الْكُرَةَ لَيْسَتْ إِلَّا عُشًّا صَغِيرًا.»

فَصَاحَتْ «أُمُّ شَرَشَرَةٍ» مَدْهُوشَةً:

«أَهْ! كَلَّا — يَا عَمِّي — فَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ تَكُونَ عُشًّا»

فَقَالَ لَهَا «الْعُقُقُ»: «بَلْ كَانَتْ عُشًّا، بَلَا رَيْبٍ. وَكَانَ يَرْفُدُ فِيهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ. وَلَوْ أَنَّكَ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ، لَرَأَيْتَ — فِي ذَلِكَ الْعُشِّ الصَّغِيرِ — دُودَةً مِنْ تِلْكَ الدِّيدَانِ الَّتِي تَبْحَثِينَ عَنْهَا مُجِدَّةً جَاهِدَةً.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشَرَةٍ»: «وَا أَسْفَاهُ عَلَى ضَيَاعِ تِلْكَ الْفُرْصَةِ الثَّمِينَةِ! لَقَدْ فَوَّتُهَا عَلَى نَفْسِي

بِجَهْلِي وَعَبَاوَتِي. وَلَيْتَنِي عَرَفْتُهَا، إِذَنْ لَنَعَمْتُ بِذَلِكَ الطَّعَامِ الْفَاحِشِ اللَّذِيزِ!»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «الْعُقُقُ» حَدِيثَهُ قَائِلًا:

«إِنِّي مُحَدِّثُكَ — يَا أُمَّ شَرَشَرَةَ — عَنْ فَائِدَةِ هَذِهِ الْكُرَاتِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا اسْمًا نَسِيئُهُ ... وَآسَفَاهُ يَا عَزِيزَتِي، فَإِنِّي أَجِدُنِي قَدْ فَقَدْتُ الذَّاكِرَةَ بِلَا رَيْبٍ!»

(١٣) قِصَّةُ صَادِقٍ

فَهَمَسَ «أَبُو بَرَّاقِشَ» فِي أُذُنِ «الْعُقَاقِ»: «صِهْ، أَيُّهَا النُّعْمُ الْكَرِيمُ. حَذَارِ أَنْ تَتَكَلَّمَ؛ فَإِنِّي أَرَى شَخْصًا يَمُرُّ فِي الطَّرِيقِ، وَهُوَ — فِيمَا يَلُوحُ لِي — شَيْخٌ مَقْوَسُ الظَّهْرِ، يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ قَفْصًا.»
فَقَالَ «الْعُقَاقِ»، وَقَدْ عَرَفَهُ مِنْ سَمْتِهِ (هَيْئَتِهِ) وَمَشْيَتِهِ: «أَلَا تَعْرِفَانِ هَذَا الشَّيْخَ؟ كَلَّا! مَا أَطْنُكُمَا تَعْرِفَانِهِ؛ فَإِنُّكُمَا لَا تَزَالَانِ صَغِيرَيْنِ. لَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّيْخُ الْهَرَمُ مِنْ أَصْدِقَاءِ «جَبَّارَةِ الْغَابَةِ»، مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ.
وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ اسْمَهُ «صَادِقٌ». وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى «جَبَّارَةِ الْغَابَةِ» فِي زَمَنٍ طُفُولَتِهِ، وَيَلْهُو — مَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو — فِي أَجْمَتِنَا. ثُمَّ وَقَعَ لَهُ حَادِثٌ مُفْزِعٌ مُؤْلِمٌ؛ فَلَمْ أَرَهُ مُنْذُ هَذَا الْحَيْنِ ...

إِنَّهَا قِصَّةُ قَدِيمَةِ الْعَهْدِ.»
فَقَالَ الشُّرْشُورَانِ: «لَيْتَكَ تَقْصُصُهَا عَلَيْنَا — يَا أَبَا الْعُقَاقِ — فَإِنَّنَا شَدِيدَا الشَّغْفِ بِسَمَاعِ الْقِصَصِ.»
فَقَالَ «الْعُقَاقِ»: «لَكُمَا مَا تُرِيدَانِ يَا وَلَدَيَّ، وَإِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكُمَا حَدِيثَهُ الْمُحْزَنَ.
لَقَدْ تَسَلَّقَ هَذَا الشَّيْخُ — وَكَانَ حِينئِذٍ صَبِيًّا — جِذْعَ الدَّوْحَةِ الْجَبَّارَةِ الْهَائِلَةِ حَتَّى بَلَغَ قِمَّتَهَا.
ثُمَّ جَلَسَ عَلَى أَحَدِ أَغْصَانِهَا الْعَالِيَةِ، وَضَمَّ سَاقًا إِلَى سَاقٍ، وَظَلَّ يَرْتَجِحُ (يَمِيلُ يَمِينًا وَيَسَارًا، كَأَنَّهُ فِي أَرْجُوْحَةٍ) مَسْرُورًا، وَيَصِيحُ مُبْتَهِجًا:

«أُنْتُ جَوَادِي وَأَنَا الْحَادِي
لَيْسَ لِمِثْلِي مِنْ أَنْدَادِ

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ

غَيْرُ شَقِيقِي عَبْدُ الْهَادِي
مَا أَنْجَبْنَا فِي الْأَوْلَادِ
مَا أَمْجَدْنَا فِي الْأَمْجَادِ

كَمْ أَرْغَمْنَا مِنْ حُسَّادِ
وَتَرَأْسُنَا حَشْدَ النَّادِي
أَنْتَ جَوَادِي وَأَنَا الْحَادِي
حَادٍ بَادٍ فِي بَغْدَادِ

وَزَلَّ يُعْنِي هَذِهِ الْأَغْنِيَةَ الْجَمِيلَةَ، وَلَمْ يَدْرِ مَا يَحْبُوهُ لَهُ الْقَدَرُ. ثُمَّ كَسَرَ الْغُصْنَ — فَجَاءَ — وَهَوَى (سَقَطَ) «صَادِقُ» إِلَى الْأَرْضِ، وَأَصْبَحَ فِي حَالٍ يُرْتَى لَهَا (تَسْتَدْعِي الشَّفَقَةَ).

وَقَدْ حَزِنْتَ طُيُورُ الْغَايَةِ لِمَصَابِيهِ، وَتَأَلَّمْتَ لِأَلَمِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّهُ وَتَأْنُسُ بِهِ. وَمَا أَجْدَرَهُ بِحُبِّهَا؛ فَقَدْ كَانَ غَلَامًا طَيِّبَ الْقَلْبِ، لَا يَدَّخِرُ وَسْعًا فِي إِسْعَادِ الطُّيُورِ وَبِرِّهَا، وَتَقْدِيمِ فُتَاتِ الْخُبْزِ إِلَيْهَا فِي الشِّتَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ يَمَسُّ أَوْكَارَهَا (أَعْشَاشَهَا) بِسُوءٍ. ثُمَّ عَادَ الصَّبِيُّ التَّاعِسُ إِلَى بَيْتِهِ أَعْرَجَ، لَا يَمْشِي إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ (بِتَعَبِهَا وَمَشَقَّتِهَا)، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى شَجَرَةِ الْبُلُوطِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي.

فَحَزِنَتْ الطَّيْرُ، وَاسْتَوْحَشَتْ لِغَيْبَتِهِ، وَكَفَّتْ عَنِ التَّغْرِيدِ أُسْبُوعًا كَامِلًا. وَكَانَتْ الْأَطْيَارُ تَخْرُجُ رُءُوسَهَا مِنْ بَيْنِ أَجْنِحَتِهَا فِي الْمَسَاءِ وَتَنْدُبُهُ، مُتَحَسِّرَةً عَلَيْهِ، فَتَهْدِئُهَا أَمَاتُهَا، وَتُعْزِيهَا فِي مَصَابِيهَا بِفَقْدِهِ. ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ أَيَّامٍ، وَقَدْ شَفِيَ — بِفَضْلِ عِنَايَةِ أُمِّهِ — وَاسْتَعَادَ نَشَاطَهُ وَصِحَّتَهُ. فَابْتَهَجَتِ الطُّيُورُ بِمُقْدُومِهِ (فَرِحَتْ بِقُدُومِهِ)، وَغَرَدَتْ (عَنَّتْ)، وَحَمَدَتِ اللَّهُ عَلَى شِفَائِهِ.



(١٤) أَلَامَ الشَّيْخُوخَةِ

ثُمَّ صَمَتَ «الْعُقُوقُ». وَظَلَّتْ «أُمُّ شَرِشَرَةَ» تَنْقُرُ صَدْرَهَا بِمِنْقَارِهَا. أَمَّا زَوْجُهَا، فَقَدْ تَرَفَّرَقَتْ دَمْعَةٌ فِي عَيْنِهِ — مِنْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ — وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْخِ «صَادِقٍ» حَتَّى اخْتَفَى عَنْ عَيْنَيْهِ.
ثُمَّ قَالَ «الْعُقُوقُ»:

«وَا حَسْرَتَاهُ! لَمْ يَبْقَ مِنْ قِصَّةِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ إِلَّا الْحَدِيثُ عَنْ ذِكْرِيَاتِهَا الْمُؤَلِّمَةِ فِي أَيَّامِهَا الْأَخِيرَةِ. فَقَدْ مَرَّتِ السَّنُونَ الْمُتَعَاقِبَةُ (السَّنَوَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ) عَلَى الشَّجَرَةِ الْهَرِمَةِ، حَتَّى أَجْهَدَتْهَا الشَّيْخُوخَةُ، وَأَصْبَحَتْ أَكْبَرَ شَجَرَاتِ الْأَجَمَةِ سِنًا.
وَقَدْ كَانَ جَدِّي ذَكِيًّا عَارِفًا بِالتَّارِيخِ، وَهُوَ يُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّ عُمَرَ شَجَرِ الْبُلُوطِ يَبْلُغُ ثَلَاثَ مِائَةِ شِتَاءٍ.»

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ

أَمَّا أَنَا، فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمُتِلَ لِنَفْسِي (أَتَصَوَّرَ) مِثْلَ هَذَا الْعُمْرِ الطَّوِيلِ؛ لِأَنَّ إدْرَاكِِي خَفِيفٌ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَيَّلَهُ.

وَمَهْمَا يَكُنْ فِي دُنْيَانَا — مِنْ أَمْرٍ — فَإِنَّ لِكُلِّ بَدَايَةٍ نِهَايَةً وَإِنَّ لِكُلِّ عُمْرٍ — مَهْمَا يَطُلُ — غَايَةً، وَلَا بَدْءَ لِكُلِّ مَوْلُودٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ أَنْ يَمُوتَ. فَلَا عَجَبٌ إِذَا أَدْرَكْتَ الشَّيْخُوخَةَ جَبَّارَةَ الْغَايَةِ، فَأَضْجَرْتَهَا (مَلَأَتْ نَفْسَهَا غَمًّا)؛ لِأَنَّ جَمِيعَ أَصْدِقَائِهَا — مِنْ عَهْدِ الطُّفُولَةِ — قَدْ مَاتُوا مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ، وَلَيْسَ أَلَمٌ لِلنَّفْسِ مِنْ فَقْدِ أَصْدِقَاءِ الطُّفُولَةِ، وَرُفَقَاءِ الشَّبَابِ!

(١٥) النَّقَّارُ الْأَخْضَرُ

وَلَمَّا جَاءَ شَهْرُ نَوْفَمِبَرٍ، وَاقْتَمَتِ السَّمَاءُ (اسْوَدَّتْ وَأَظْلَمَتْ مِنَ الْغُيُومِ)، وَبَرَدَ الْجَوُّ، أُتِيحَ (تَهَيَّأَ) لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ الْعَجُوزِ رَفِيقٌ بَارٌّ مُخْلِصٌ؛ فَظَلَّ لَهَا سَمِيرًا وَمُؤْنَسًا طَوَّلَ حَيَاتِهَا. وَكَانَتْ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ الْعَجُوزُ — حِينئِذٍ — تَتَأَهَّبُ لِرُقَادِهَا (تَسْتَعِدُّ لِنَوْمِهَا) السَّنَوِيِّ الطَّوِيلِ الَّذِي يَسْتَغْرِقُ الشَّهْرَ كُلَّهُ. وَلَكِنَّ ضَجَّةَ مُدْوِيَّةٍ زَعَزَعَتْهَا مِنْ فَرْعِهَا إِلَى أَصْلِهَا (مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا). وَلَمْ تَكُنْ الضَّجَّةُ الْعَنِيفَةُ إِلَّا طَلْقًا نَارِيًّا، خَرَجَ مِنْ بُنْدُقِيَّةٍ صَيَّادٍ يَجُوسُ (يَمْشِي) خِلَالَ الْأَجْمَةِ، وَخَلَفَهُ كَلْبُهُ.

وَسَمِعَتْ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ — حِينئِذٍ — صَوْتَ صَفِيرٍ مُنْقَطِعٍ يَنْبُعُ مِنْ نَقَّارٍ أَخْضَرَ، يَرْتَعِدُ فَرَعًا، وَيُوشِكُ أَنْ يَهْلِكَ مِنَ الدُّعْرِ؛ فَقَدْ كَانَ النَّقَّارُ الْأَخْضَرُ يَنْتُنُّ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَيَقُولُ:

«لَقَدْ هَلَكْتُ، فَمَا حِيلَتِي؟ وَمَنْ لِي بِالنَّجَاةِ مِنْ مُطَارَدَةِ الصَّيَّادِ؟ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ أَسْتَخْفِي؟»

فَقَالَتْ لَهُ «جَبَّارَةُ الْغَايَةِ» الْعَجُوزُ:

«إِلَيَّ يَا صَدِيقِي النَّقَّارُ الْأَخْضَرُ، هَلُمَّ فَانْزِلْ فِي هَذَا الثُّقْبِ الَّذِي تَرَاهُ بَيْنَ غُصْنَيْ الْكَبِيرَيْنِ.»

فَأَسْرَعَ النَّقَّارُ الْأَخْضَرُ إِلَى الشَّجَرَةِ، وَخَبَأَ نَفْسَهُ فِي الْمَخْبِئِ الْأَمِينِ. وَمَرَّ بِهِ الصَّيَّادُ وَكَلْبُهُ، دُونَ أَنْ يَفْطِنَا إِلَى مَكَانِهِ. فَلَمْ يَنْسَ النَّقَّارُ الْأَخْضَرُ — لِشَجَرَةِ الْبُلُوطِ — هَذِهِ الْيَدَ، وَشَكَرَ لَهَا أَنْ أَنْقَذَتْ حَيَاتَهُ، وَفَكَرَ طَوِيلًا فِي مُكَافَأَتِهَا عَلَى صَنِيعِهَا.



ثُمَّ هَذَا تَفَكِيرُهُ إِلَى الْفَحْصِ عَنْ جِدْعِهَا؛ فَرَأَى كَثِيرًا مِنَ الْحَشَرَاتِ قَدْ تَجَمَّعَتْ حَوْلَ الْجِدْعِ تَأْكُلُهُ، حَتَّى نَخَرَبَتْهُ (جَعَلَتْ فِيهِ ثُقُوبًا وَشُقُوقًا). فَلَمَّا رَأَى جِدْعَهَا قَدْ نَخَرَ (بَلَى وَتَقَنَّتْ) وَفَسَدَ، آلَى (حَلَفَ) عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُبِيدَهَا (يُهْلِكَهَا) جَمِيعًا. وَظَلَّ يَلْتَهُمُ الْحَشَرَاتِ، دَائِبًا (مُوَاطِبًا) عَلَى مُطَارَدَتِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ، مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ.

وكَانَتْ أَسْرَابُ الْحَشَرَاتِ (جَمَاعَاتُهَا) كُلَّمَا رَأَتْهُ، هَمَّتْ بِالْفَزَارِ. وَلَكِنَّهُ كَانَ يَمُدُّ لِسَانَهُ إِلَيْهَا، فَيَلْتَقِطُهَا — مِنْ فَوْرِهِ — وَيَرَى فِي هَذِهِ الْحَشَرَاتِ السَّمِينَةِ أَشْهَى غِذَاءٍ لَهُ.

وَلَمَّا حَلَّ الشِّتَاءُ، لَمْ يَشَأِ النَّقَّارُ الْأَخْضَرُ أَنْ يَتْرُكَ صَدِيقَتَهُ الْعَزِيزَةَ، فَظَلَّ فِي مَحَبَّتِهِ بَيْنَ أَغْصَانِهَا، صَابِرًا عَلَى بَرْدِ الشِّتَاءِ الْقَارِسِ، وَقَدْ ذَهَبَ رِيشُهُ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ طَوْلَ أَيَّامٍ هَذَا الْفَصْلِ؛ فَكَانَ يَقْضِي سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يَتَحَدَّثُ فِيهَا إِلَى صَدِيقَتِهِ «جَبَّارَةَ الْغَابَةِ» عَنْ جَمَالِ أَيَّامِ الشَّبَابِ..

(١٦) خَاتِمَةُ الْحَدِيثِ

ثُمَّ صَمَتَ «الْعَفْعَقُ» عَنِ الْكَلَامِ، وَلَبِثَ الشُّرْشُورَانِ صَامِتَيْنِ.

وَظَلَّ ثَلَاثَتُهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي قِصَّةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْعُجُوزِ، الَّتِي لَقِيتْ حَتْفَهَا (مَاتَتْ) فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَارْتَمَتْ عَلَى الْحَشَائِشِ الْمُخْضَرَّةِ.

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ

ثُمَّ قَالَتْ «أُمُّ شَرِّشَرَةٍ»: «تُرَى: كَيْفَ كَانَتْ خَاتِمَةُ النَّقَّارِ الْأَخْضَرِ؟»
فَقَالَ «أَبُو بَرَّاقِشَ»: «لَعَلَّ الْعَاصِفَةَ قَدْ أَهْلَكَتْهُمَا مَعًا!»

فَقَالَ «ابْنُ دَأْيَةٍ»: «لَسْتُ أَسْتَبْعِدُ دِلْكُمَا، يَا وَلَدَيَّ الْعَزِيزَيْنِ! فَلَا تَحْزَنَا عَلَيْهِمَا، فَكُلُّنَا
لِلْفَنَاءِ.»

